

الإخوان العرب خسروا أوطانهم.. فهل كسبوا تركيا؟

بحثوا عن سند جديد لمشروعهم فانتخوا أدوات بأيدي القوميين المتطرفين الأتراك



تعويل جماعة الإخوان المسلمين بشكل مبالغ فيه على تركيا لتكون ملاذاً آمناً لقادتها وعناصرها الفارين من بلدانهم، وعلى القيادة التركية الحالية لتكون سنداً للجماعة ورافعة لمشروعها بعد أن ساهمت خلال العشرية الأخيرة في إسقاط عدة بلدان عربية في الفوضى وغالست في عدائها لجماعات بلدان أخرى والإساءة إلى قياداتها، يضع الإخوان أمام خطر التحول إلى أداة طيعة ضمن أدوات أخرى يستخدمها الرئيس التركي رجب طيب أردوغان في تنفيذ مشروع هو في جوهره مشروع قومي تركي متطرف بلبوس إسلامي.

إسطنبول - يظنّ عناصر جماعة الإخوان المسلمين وقادتهم من مختلف المستويات وهم يتوافدون على إسطنبول، من مصر وليبيا واليمن وقطر والكويت وسوريا وغيرها من الأقطار العربية، أنهم وجدوا في تركيا ملاذاً آمناً وحاضنة لمشروعهم العابر للحدود، وفي قيادتها ممثلة بزعم حزب العدالة والتنمية رجب طيب أردوغان حليفاً صلباً عميق الإيمان بفكرتهم ومستعداً لـ"التضحية" من أجل تحقيقها من منطلقات مبدئية.

ويتفاجأ الكثير من هؤلاء بأنهم أصبحوا مجرد أدوات صغيرة بادوار وظيفية محددة في خدمة مشروع قومي لأمة أخرى لا يمثل الدين فيه سوى لبوس خارجي وواجهة للتسويق. لقد كان الإخوان خلال العشرية الأخيرة في قلب الأحداث العاصفة التي هزت استقرار الكثير من الأقطار العربية وطرفاً أساسياً فيها، من الحرب في سوريا واليمن وليبيا، إلى أحداث مصر في 2011 وما بعدها، محاولين ركوب موجة القلاقل والاضطرابات التي شاركوا في إثارتها للانقضاض على السلطة، حتى أنهم طعموا في تسريب شرارة الربيع العربي إلى منطقة الخليج الغنية والمستقرة عبر بوابة الكويت مستغلين تسامح السلطة هناك معهم وسماحها لهم بممارسة النشاط السياسي تحت باظنة العمل الخيري والإنساني.

رهان الإخوان على تركيا ليس رهانا على دولة وإنما على حزب دبت الانقسامات في صفوفه وتراجعت قاعدته الشعبية

فماذا جنى الإخوان العرب من كل تلك الأحداث العاصفة وماذا جنت أقطارهم، وما الذي غنمته تركيا من استقطابهم وإبوانهم؟

أداة طيعة

على صعيد عملي لم تبد تركيا منذ تأسيس دولتها الحديثة على أنقاض الإمبراطورية العثمانية المنهارة مطلع العشرية الثانية من القرن الماضي، طمعا في أراضي العرب وثرواتهم، مثلما هي حال تركيا اليوم بقيادة رجب طيب أردوغان الذي أنتك مطامعاً حالة الضعف وعدم الاستقرار في عدد من الأقطار العربية، لكنه وجد أيضا في جماعة الإخوان المسلمين أداة طيعة ووسيلة مساعدة على تحقيق تلك المطامع.

ولا يفتقر الإخوان إلى سلاحين شديدي الفاعلية والتأثير، وهما سلاح المال والإعلام، فقد تمكّنت بعض فروع الجماعة من مراكمة ثروات طائلة على مدى عشرات من الزمن استمدتها من اختراعها للأجهزة لبعض الدول وابتزاز أجزاء من ثرواتها حيناً، ومن جمع التبرعات دون ضوابط تحت باظنة العمل الاجتماعي والخيري حيناً آخر، بينما تمكن بعض عناصر الإخوان في بلدان عربية أخرى بفضل مشاريعهم التجارية والاستثمارية من مضاعفة ثرواتهم ليلتحقوا بنادي المليارديرات، مثل حميد الأحمر القادي في حزب التجمع اليمني للإصلاح؛ الفرع المحلي

من تنظيم الإخوان الدولي، أما إعلامياً فيتحرك الإخوان من خلال العشرات من المنابر تتوزع بين الإعلام المرئي والمسموع والمقروء والإلكتروني، من أشهرها وأكثرها وصولاً للمتقين والشؤون الداخلية لدول المنطقة وانتهاك قوّاته ومرتزقته لحرمة أراضي دول مثل سوريا والعراق وليبيا، بل إن من عناصر الإخوان ومنظريهم وإعلاميهم ملاحقين بتهمة الإرهاب، ما جعل الكثيرين منهم يلونون بقطر ثم بتركيا، ليفتحوا من هناك جبهات حروب إعلامية على كل من يعارض السياسة التوسعية لأردوغان ويفرض تدخله في الشؤون الداخلية لدول المنطقة وانتهاك قوّاته ومرتزقته لحرمة أراضي دول مثل سوريا والعراق وليبيا، بل إن من عناصر الإخوان ومنظريهم وإعلاميهم

قطع خط الرجعة

لقد قطع الإخوان خط الرجعة إلى أقطارهم ومجتمعاتهم التي أسأوا السيرة والسلوك فيها وخاضوا مواجهات شرسة ضدّ مختلف مكوناتها وتياراتها السياسية والفكرية وشنوا أشرس الحملات على قياداتها السياسية، بل اضطروا في مؤامرات وأنشطة دموية جعلتهم

ملاحقين بتهمة الإرهاب، ما جعل الكثيرين منهم يلونون بقطر ثم بتركيا، ليفتحوا من هناك جبهات حروب إعلامية على كل من يعارض السياسة التوسعية لأردوغان ويفرض تدخله في الشؤون الداخلية لدول المنطقة وانتهاك قوّاته ومرتزقته لحرمة أراضي دول مثل سوريا والعراق وليبيا، بل إن من عناصر الإخوان ومنظريهم وإعلاميهم

إلى مستوى التالي والتزّيه عن الخط. وعن الجانب المالي والاقتصادي من أنشطة الإخوان على الأراضي التركية تقول عدّة مصادر مطلعة إن حركة نقل وتهريب غير مسبوقة لأموال الجماعة نشطت خلال السنوات الأخيرة، وأن ثروات تقدر بمليارات الدولارات تدفقت على تركيا من عدّة دول عربية مثل قطر وسوريا واليمن والكويت، ومن دول أخرى عبر العالم وتمّ ضخها في استثمارات ومشاريع تجارية تركية، وتؤكد تلك المصادر أن الأجهزة الرسمية التركية انخرطت في عملية النقل والتهريب تلك وساهمت في تسهيلها وضمان انسيابيتها، حيث كانت تركيا التي شهدت ازدياداً مالياً واقتصادياً متلاحقة وذات ارتباط مباشر بسياسة الرئيس أردوغان والمشاكل الكثيرة التي أثارها والصراعات الإقليمية التي أقم فيها بلاده، باشد الحاجة إلى جلب الأموال وتنشيط حركتها التجارية والاستثمارية.



من يتطوّع باستدعاء تركيا إلى اليمن وحثها على التدخل في الصراع الدائر على أرضه. وتكمّلون عن أشهر المعارك الإعلامية التي خاضها الإخوان العرب لمصلحة تركيا ضدّ بلدانهم، معركة مقتل الصحافي السعودي جمال خاشقجي في قنصلية بلاده في خريف سنة 2018، حيث تمكّنت تلك الجريمة فرصة سانحة لأنقرة لتصفية حسابات مع الرياض التي كثيرا ما نظر إليها أردوغان كعقبة رئيسية في وجه مشروعه التوسعي بالنظر إلى محورية الدور السعودي في العالم العربي والإسلامي بما تمتلكه السعودية من مكانة دينية وسياسية واقتصادية، وهو ما يتعارض مع طموح زعيم حزب العدالة والتنمية إلى تحويل إسطنبول مركزاً للعالم الإسلامي كما كانت عليه في عهد السلطان العثمانيين الذين تمكّن سيرهم مصدر هوس للرئيس التركي.

ولم يكن الإعلاميون والسياسيون الأتراك أكثر ظهوراً في الحرب الدعائية التي شنتها على السعودية بسبب مقتل الصحافي، من عدد من الوجوه الإخوانية العربية المقيمة في إسطنبول، والتي شكّلت جوقاً متناعمة من كبار اعلامها الإخوانية اليمنية توكل كرمان التي فاقت في تحمسها للقضية أولياء دم القتييل الذين أعلنوا عفوهم عن الموظفين السعوديين المتورطين في الجريمة.

أما مصر التي شهدت سنة 2013 إحدى أكبر "النكبات" في تاريخ الإخوان المسلمين منذ تأسيس تنظيمهم على يد حسن البنا سنة 1928

تمثّلت في سقوط حكمهم القصير لمصر بثورة شعبية، فقد كانت هدفا رئيسيا لحملات الإخوان المقيمين

التواكل على الآخر بعد تدمير الذات

القادمة فسيكون الإخوان العرب إزاء نكبة جديدة، فلا أحد يتوقع أن تتواصل علاقة أنقرة بالعواصم العربية على ما هي عليه اليوم من سوء، ومن المرجح أن تتسلك أي قيادة تركية من خارج دائرة الإسلاميين طريقاً مغايراً في علاقاتها بالدول العربية وأن تتجه نحو ترميم علاقات تركيا مع تلك الدول وإزالة أسباب الخلافات التي راكمها زعيم حزب العدالة والتنمية.

إن رجب طيب أردوغان بمزاجه السياسي المتقلب وبرغامتيته المبالغ فيها حدّ الانتهازية لم يكن يوماً حليفاً موثقاً به لأي طرف، شخصاً كان أو حزباً أو دولة. وقد بدأ عهده في حكم تركيا صديقاً شخصياً لرئيس النظام السوري بشار الأسد، واستطاع معا أن يترجما تلك الصداقة إلى وفاق سياسي وتعاون اقتصادي استمر لسنوات وحقق نتائج على الأرض قبل أن ينقلب أردوغان على الأسد ويصبح في مقدمة العاملين بكل الطرق على إسقاطه بما في ذلك تسريب أفواج الإرهابيين القادمين من أماكن مختلفة من العالم إلى بلاده، لينكشف بعد ذلك أن أردوغان أطماعاً حقيقية في أجزاء من الأراضي السورية وهو أمر متجسد اليوم من خلال سيطرة الجيش التركي على مساحات من شمال سوريا وشرقها بذرائع أمنية.

تقلب أردوغان ومزاجيته تجلّيا أيضا في العلاقات المتقلبة لبلاده مع الولايات المتحدة وروسيا والحلف الأطلسي الذي تنتمي إليه تركيا، ومع الدول الأوروبية ولاسيما دول الاتحاد الأوروبي الذي تراجعت الحظوظ التركية في الانضمام إليه بسبب كثرة المشاكل التي أثارها أردوغان والمتاعب التي سببتها سياساته لتلك الدول، ولاسيما قضية المهاجرين الذين سعت أنقرة خلال السنوات الماضية بشكل متكرر لاستخدامهم أوراق ضغط على أوروبا، وأدوات لابتزازها سياسياً ومالياً.

إن ما يجمع الإخوان بأردوغان هو الانتماء إلى تيار الإسلام السياسي واستخدام الدين وسيلة للوصول إلى السلطة، لكن ما غاب عن أذهان الكثير من العرب المنهريين بالرئيس التركي هو طغيان نزعة القومية الشوفينية التي تجعل مشروعه مشروعاً تركيا بالدرجة الأولى وتجعل منهم مجرد أداة من ضمن أدوات كثيرة أخرى تستخدم مرحلياً لتنفيذ ذلك المشروع ثم تهمل أو تتلف عندما تنتفي الحاجة إليها.

فهم سطحي

لقد تمكّنت قضية خاشقجي واصطفاف الإخوان فيها إلى جانب نظام أردوغان ضدّ السعودية، من جهة، نموذجا لقابلية الإخوان العرب المقيمين في تركيا للاستخدام كأدوات لتنفيذ السياسة التركية، كما عكست من جهة أخرى فهمهم السطحي لتلك السياسة، حيث بدأ أنهم مصدّقين بأن موقف حكومة العدالة والتنمية من القضية موقف مبدئي يتعلق بحقوق الإنسان ونصرة المظلومين، ولم يكفوا أنفسهم التساؤل عن تلك الحقوق عندما يتعلّق الأمر بعشرات الآلاف من المعارضين الأتراك الذين اقتلعوا من وظائفهم وزجّ بهم في السجون بتهمة الانتماء إلى تنظيم فتح الله غولن المتهم بالوقوف وراء محاولة انقلاب فاشلة على أردوغان سنة 2016، أو عندما يتعلّق الأمر بحرية الصحافة والصحافيين الذين يقبع العشرات منهم في السجون التركية لمعارضتهم سياسياً زعيم العدالة والتنمية وتقديمه لمواقفه، أو بحقوق الأقلية الكردية التي يعامل أفرادها كإرهابيين ويقتل نوابها من البرلمان ويوزج بهم في السجون، أو بحقوق الأرمن الذين لا يجب أردوغان أن يسمع شيئاً عن مجزرة الأتراك بحقهم، رغم أنها من الحقائق المستقرّة في التاريخ المعاصر والادلة المادية.

إنّ الرهان الإخواني المبالغ فيه على تركيا يمثّل مظهراً على قصر نظرهم وافتقارهم للتفكير الاستراتيجي، فهم لا يراهنون على دولة بل على حزب راكم الكثير من الأخطاء أثناء قيادته للبلاد وبيدات شعبيته في التقلص بينما تسرّبت الانقسامات إلى صفوفه وبدأ يفقد قوّته الانتخابية بدليل خسارته ببلدية إسطنبول خلال الانتخابات البلدية الأخيرة. وإذا خسّر أردوغان السلطة خلال السنوات

متمثلة في سقوط حكمهم القصير لمصر بثورة شعبية، فقد كانت هدفا رئيسيا لحملات الإخوان المقيمين